والطباق والجناس وإسباغ الألقاب على السلطان في الرسائل الديوانية، وكانت هذه الألقاب تزيد في بعض الأحيان على ثلاثين لقباً يصر السلطان المملوكي على أن يلقب بها دون زيادة أو نقصان[1] كما سيأتينا النص حين نقف عند دراسة ابن الخطيب.

ابن الخطيب[2] (ت٧٧٦هـ)

حياته وسيرته:

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله السلماني، المعروف بابن الخطيب، قرطبي الأصل، ثم طليطليه ثم لوشيه ثم غرناطيه،[3] من أشهر أعلام القرن الثامن الهجري بالأندلس، ومن أعظم كتاب عصره وشعرائه ويبالغ الأستاذ عنان حين يقول: "بل هو من أعظم كتاب الأندلس وشعرائها على الإطلاق"[4] وربما كان السبب في نعته هذا النعت، المنزلة السياسية التي تحققت لابن الخطيب، وتنوع شخصيته العلمية، وغزارة نتاجه على مستوى العلوم الإنسانية المتنوعة.. ويحق للأندلس أن تزهو بابنها البار الذي اقترن اسمه بها كما اقترنت هي به، فقد مثّل الحركة الفكرية في الأندلس على عصره، بل كان صاحب مدرسة اتخذت لها طابعه العبقري الفذ، وغدت في أوج قوتها وروعتها ممتدة إلى أوائل القرن التاسع الهجري، وتجاوز غرناطة واتسع نطاقها إلى أبعد ما يتصوره العقل.[5]

ولمكانته العريضة أصبح عنوان عصره، في فنون الأدب وضروب العلم، فحين أراد الأستاذ عبد الله كنون دراسة أدب عهد غرناطة وملوك بني الأحمر قال:

"فإن واحداً منهم يكفي للتنويه بنهضة الشعر فيه، هو لسان الدين بن الخطيب الذي ملأ الدنيا شعراً وأدباً، وعفّى ذكره على السابقين واللاحقين من أدباء الأندلس، فما من مجال إلا وله فيه ذيل سحب، وما من موضوع إلا وقد تناوله بذراع رحب، وبقدر ما له في الشعر من الآيات البينات، فإن له في النثر الفني، والكتابة العلمية والتاريخية الآثار الخالدات، وبالجملة فقد كان معجزة قطره، ومفخرة عصره".[6]

"ولمكانة ابن الخطيب وقوة أشعاره وقر في بعض الأذهان أن تربة الأندلس المسلمة قد عقمت فلم تنتج أدباً أو علماً أو فناً، فكأن سطوع ذلك الإشعاع أعشى الأبصار فلم

---

١ الأدب الأندلسي الشكعة، ٥٧٣.
٢ ينظر: محمد عبد الله عنان، لسان الدين بن الخطيب، حياته وتراثه الفكري، ط الخانجي، القاهرة، ١٩٦٨.
٣ الإحاطة، ٤/٤٣٩.
٤ لسان الدين بن الخطيب، ٢٠٠.
٥ يوسف الأول، ١٥٨.
٦ الشعر الأندلس، مجلة المجمع العلمي العربي بدمشق، ١٣/٣/١٩٥٦، ص ٣٨٧ . ٣٨٨.

تعد ترى غيره".[1]

ولد ابن الخطيب في (لوشة) في رجب ٧١٣هـ وكان جده سعيد أول من استوطنها من أسرة عربية النجار من حيث الأب والأم ذات جذور طيبة في الفضل والعلم، وقد عرف بيته قديماً بيتي وزير، ولما مارس جده الأدنى التعليم والتدريس غلب عليه لقب (الخطيب) وورثه فيه أبناؤه، كما تولى جده فضلاً عن ذلك بعض المناصب الإدارية وكذلك شغل أبوه (عبد الله) منصباً في دولة ابن الوليد إسماعيل وقد كانت نشأة أبي عبد الله الأولى في غرناطة وفيها حلّ الشباب تمائمه.. لكن (لوشة) ظلت وتراً يترنم به، حيث كان يسميها بنت الحضرة، أي (بنت غرناطة)، وغرناطة يومها في عنفوانها إحدى أعظم حواضر الأندلس، ولذلك سميت (سنام الأندلس)[2] بعد انحسار دولة المسلمين إلى الجنوب.

أخذ علوم عصره على يد أكابر علماء العصر،[3] أمثال ابن الفخار الألبيري شيخ النحاة والمحدث شمس الدين بن جابر الوادي آش، والقاضي أبي البركات بن الحاج البلفيقي وأبي جعفر بن الزبير، وأما الأدب والكتابة والشعر فقد أخذها عن ابن الحكيم اللخمي، وأبي الحسن بن الجياب، وعن أبي سعيد فرج بن لب.

وحين توفي أبوه سنة ٧٤١هـ، خلفه في ديوان الإنشاء الذي كان يرأسه أبو الحسن بن الجياب وزير السلطان أبي الحجاج يوسف بن إسماعيل (٧٣٤. ٧٥٥هـ)، فتولى أمانة سر هذا الديوان، ثم خلف ابن الجياب بعد وفاته بسبب الوباء الجارف عام ٧٤٩هـ فأصبح رئيس الكتاب ورئيس ديوان الإنشاء، كما أنعم عليه السلطان رتبة الوزارة و"تألق نجم ابن الخطيب وعظمت منزلته"،[4] وحين خلف محمد الغني بالله (٧٥٥. ٧٦٠هـ) سلطان أبيه يوسف، بقي ابن الخطيب في منصبه وما زال فيه حتى نشبت الفتنة سنة ٧٦٠هـ فيتولى شقيقه إسماعيل الحكم، ويرحل ابن الخطيب والغني بالله إلى المغرب، ولم يزالا كذلك حتى عادا إلى الحكم ثانية.. وأحفظ حسّاده عليه السلطان فنكبه، ثم غادر الأندلس إلى المغرب لاجئاً سياسياً، وانتهى الأمر بسلطان الأندلس، بتحريض الفقهاء، أن أحرق كتبه سنة ٧٧٣هـ، ثم تولى حكم المغرب الأمير أحمد بن أبي سالم، وحقق لابن الأحمر ما أراد في ابن الخطيب حين سجنه ثم قتله، سنة ٧٧٦هـ.

وفيما تقدم إلمامة سريعة لحياة هذا الأديب الكبير، وبإمكان الدارس التعرف على مزيد من التفصيلات بالرجوع إلى عدد من المصادر، في مقدمتها الترجمة الواسعة التي كتبها ابن الخطيب بقلمه وجعلها بقية السفر الثاني عشر في الإحاطة،[5] وهي تتضمن

---

١ مجلة أوراق، ١٩٨٥/٨/٧.
٢ اللمحة البدرية، ص ٢١.
٣ ينظر في شيوخه لشيخته التي ذكرها في ترجمته لنفسه الإحاطة، ٤٥٨/٤.
٤ لسان الدين بن الخطيب، ٣٦ . ٣٧.
٥ الإحاطة، ٤٥٩/٤ . ٤٦٢.

معلومات تفصيلية عن حياته، فضلاً عن النصوص الشعرية الطويلة التي أوردها والنصوص النثرية الزاخرة في هذا السفر الثمين.

وقد بدأ تلك الترجمة بالحديث عن أوليته، ومراحل حياته الأولى، وانتقل إلى الكلام في بعض ما صدر له من التشريفات الملوكية، وتحدث عن مشيخته، وعن تآليفه، وأورد أمثلة من شعره، ومن رسائله المختلفة، ومنها رسالة السياسية.

ومن أوسع الذين ترجموا لابن الخطيب، المقري في كتابه نفح الطيب، فقد كان معجباً أشد العجب به وذلك ما دعاه إلى تأليف كتابه في مراحله الأولى بعنوان: عرف الطيب في التعريف بالوزير ابن الخطيب،[1] ثم غير أبو العباس المقري خطة بحثه ليفيد أهل المشرق بمعلومات أخرى كثيرة عن الأندلس، فكان كتابه المعروف بنفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، وقد استغرقت ترجمة ابن الخطيب القسم الثاني من هذا الكتاب الموسوعي وكما جعل القسم الأول الخاص بالأندلس في ثمانية أبواب، فإنه التزم هذا العدد من الأبواب في التعريف بابن الخطيب، ويلي كتاب النفح في الأهمية كتاب أعمال الأعلام، حيث نجد حديثاً مفصلاً.. لا غنى للباحث عنه.

ومما يدخل في المرتبة الثانية في الكتب التي ترجمت لابن الخطيب، الترجمة القيمة التي قدمها صديقه ابن خلدون (ت٨٠٨هـ) في كتابه المشهور بالعبر، ومما يدخل في المرتبة الثالثة في المصادر التي تناولت ابن الخطيب، كتابا الأمير أبي الوليد بن الأحمر (ت٨٠٧هـ)، نثير فرائد الجمان في نظم فحول الزمان، ونثير الجمان في شعر من نظمني وإياه الزمان،[2] وكتاب بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد لأبي زكريا يحيى بن خلدون (ت٧٨٠هـ).

آثاره ومؤلفاته:

ويفسر لنا غزارة نتاجه أنه كان لا ينام إلا قليلاً بسبب ما أصيب به من أرق ولذلك لقب بذي العمرين.[3]

يعد ابن الخطيب أحد الأعلام القلائل في تاريخ الأندلس الذين كان لهم نتاج خصب في ميدان التأليف وقد وقف الدارسون على أشهر مؤلفاته من خلال مصادر ترجمته وهي تأتي عند الأستاذ محمد عبد الله عنان مصنفة حسب موضوعاتها والأعداد التي

---

١ مقدمة محقق النفح، ١٥/١. وقد أشار المقري (النفح، ١٦٤/٦) أن حديثه عن ابن الخطيب، أصل قصد إليه في تأليف الكتاب، وان غيره كالتبع له.

٢ كلا الكتابين نشر بتحقيق د. محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، سنة ١٩٦٧. ومؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٩٧٦.

٣ تاريخ الفكر الأندلسي، ٢٥٧.

وصلت منها: حيث بلغت نحواً من ستين كتاباً، وصل منها حوالي ثلثها،[1] ونستطيع أن نصنف آثاره في ثلاثة أضرب:

النثر التأليفي ونريد به مصنفاته وتآليفه، وهي أهم ما في تراث ابن الخطيب ويتجه بعضها نحو نزعة موسوعية، ويأتي الآخر بصيغة رسالة موجزة، وهي تنحو وجهتين، الأولى: تاريخية، والثانية: علمية، وقد أشار الأستاذ عنان من النوع الأول إلى أحد عشر مصنفاً، من أشهرها: الإحاطة في أخبار غرناطة، التاج المحلى في مساجلة القدح المعلى، الكتيبة الكامنة فيمن لقيته بالأندلس من شعراء المئة الثامنة، اللمحة البدرية في الدولة النصرية، نفاضة الجراب في علالة الاغتراب، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، طرفة العصر في تاريخ دولة بني نصر، الإكليل الزاهر فيمن فصل عند نظم الجواهر، عائد الصلة، الإماطة عن وجه الإحاطة.

ولا يمكننا أن نغفل دور ابن الخطيب المؤرخ ومكانته في هذا الميدان ولا سيما في التاريخ المعاصر له، فقد عد عنان كتبه من أقيم ما كتب في تاريخ الأندلس والمغرب في القرن الثامن،[2] وعلى الرغم من أن نظريته في فهم التاريخ لا ترقى إلى نظرية عصريّه ومزامنه ابن خلدون، فالتاريخ عنده رواية وأداة لتدوين السير، والاعتبار بالحوادث الماضية،[3] ويلخص عنان أبرز خصائصه في مجال التدوين التاريخي وهي أخذه بالمنهج النقدي للرواية التاريخية، وكذلك أخذه بالمنهج الاجتماعي في دراسة التاريخ، وأخيراً اتسمت كتاباته بالتثبت والتحقيق، ولا سيما فيما كتبه عن عصره.[4]

وأما الوجهة الثانية التي سلكتها مؤلفاته ونعني بها العلمية، فقد خلف مجموعة من المصنفات بلغت سبعة وهي في مجملها رسائل في الطب وفي الأغذية وعلاج السموم ومنها رسالته التي كتبها عن الوباء (الطاعون) الذي عم الأندلس وسائر العالم الإسلامي سنة ٧٤٩هـ، وهذه الآثار ذات قيمة علمية جعلت المتخصصين يهتمون بها، ومما يتصل بهذه الآثار منظوماته العلمية، ومنها أرجوزته الموسومة (الحلل المرقومة في اللمع المنظومة) وهي وعدتها ألف بيت، في أصول الفقه، وأرجوزته التي ألفها في العروض، وقد وصلت تحت عنوان: كناش منظوم في عروض الرجز، وله أرجوزة أخرى في فن السياسية في ستمائة بيت.

وأما الضرب الثاني من مؤلفاته فيتصل برسائله الأدبية وسنتوقف عندها بشيء من الأناة حين الحديث عن نثره، وأما الثالث فيتصل بشخصية ابن الخطيب الشاعرة وهي تؤلف الشطر الثاني من آثاره وقد وسم ديوانه بعنوان الصيب والجهام والماضي

---

١ لسان الدين بن الخطيب، ص ٢١٦.
٢ لسان الدين ابن الخطيب، ٢١٧.
٣ نفسه، ٢٢٠.
٤ نفسه، ٢٢٠.

والكهام،[1] ولا يحتوي الديوان جميع أشعاره فقد أظهر لنا الجزء الرابع من كتاب الإحاطة الذي صدر سنة ١٩٧٧، مجموعة ضخمة من أشعاره لم ترد في الديوان، وقد وصلت إلينا كتب أخرى تمثل مجاميع شعرية اختارها ابن الخطيب، ومنها كتاب السحر والشعر،[2] وكتاب جيش التوشيح الذي يعد أوسع مجموع شعري للموشحات، كما سيأتي الحديث عنه في موضوع الموشحات، وقد جمع ابن الخطيب مجموعة من شعر أستاذه ابن الجياب على نحو ما فعل في جمعه لمنثوره كما جمع مجموعة من شعر أبي جعفر بن صفوان المالقي وكلا المجموعين مفقود.[3]

وإذا كنا تحدثنا عن مصنفات ابن الخطيب في الفنون المختلفة، فلا بد أن نشير إلى أن عدداً كبيراً منها لم يصل إلينا، ولا نشك في أن للمحنة التي تعرض لها في آخر حياته أثراً في فقدانها، وقد أشار الأستاذ عنان إلى تسعة منها.[4]

والخلاصة في آثاره ومصنفاته البيتان اللذان قالهما المقري معجباً:[5]

تصانيف الوزير ابن الخطيب ... ألذُّ من الصِّبا الغض الرّطيب
فأية راحة ونعيم عيشٍ ... توازي كتبه أم أيّ طيب

واستحسن عباس المراكشي البيتين اللذين أوردهما المقري فذيلهما معرباً عن إعجابه بالجانب الأدبي من ابن الخطيب فقال:[6]

وما زين الشباب وأنت تجري ... مع الأحباب في لهو وطيب
ووصلٍ من حبيبٍ بعد هجرٍ ... بأحلى من كلامِ ابن الخطيب

شاعريته وسماته الفنية:

أشرنا قبل قليل إلى الموهبة التي انماز بها ابن الخطيب، فقد كان من ذوي المواهب المزدوجة، حيث جمع بين ملكتي الشعر والنثر، وتفوق فيهما جميعاً، وقد أشاد الباحثون بشاعريته قديماً وحديثاً حيث تناولت أشعاره أكثر موضوعات الشعر التقليدية فنظم القصيدة السياسية في باب المديح كما نظم في الغزل والزهد والتصوف والمديح النبوي، وكانت له مساهمات واسعة في ميدان التوشيح والزجل.

وانعقد الإعجاب به شاعراً لدى علماء عصره وأترابه فهذا ابن خلدون يقول فيه: "ونبغ في الشعر والترسيل بحيث لا يجارى فيهما، وأصبح شاعر الأندلس والمغرب في

---

١ حققه د. محمد الشريف قاهر، الشركة الوطنية، الجزائر، ١٩٧٣.
٢ ممن حققه السيد عمار إبراهيم قدور، جامعة عين شمس، ١٩٧٥.
٣ لسان الدين بن الخطيب، ٢٧٤.
٤ لسان الدين بن الخطيب، ٢٨١.
٥ النفح، ٧٦/١.
٦ الأعلام للمراكشي، ٣٥٣/٣.

عصره"[1] وأما أبو الوليد بن الأحمر فقد وصفه بقوله: "هو شاعر الدنيا، وعالم المفرد والثنيا وكاتب الأرض إلى يوم العرض، لا يدافع مدحه في الكتب، ولا يجنح فيه إلى العتب، آخر من تقدم في الماضي وسيف قوله ليس بالكهام إذ هو الماضي... نفيس العروتين ورئيس الدولتين..."[2].

وقد ساق عنان طائفة من أقوال المستشرقين الذين بُهروا به، وأعجبوا بأدبه فقد وصفه المستشرق سيمونت بأنه أمير الأدب الغرناطي وأنّ شهرته وصلت بلاط[3] قشتالة، ووصفه المستشرق جسبار ريميروا بأنّه شاعر وكاتب وضاء وآخر الطرافة والرّشاقة، وأما المستشرق خوسية كاسيارو فقد عده آخر عملاق في الآداب الأسبانية الإسلامية، ويرى المستشرق الأسباني غرسية غومس أنه قدر له أن يختم حوليات الأندلس المجيدة أقوى ختام وأعظمه في النفس وقعاً، وأما بالنثيا فقد أعجب هو الآخر به وبتلميذه ابن زمرك فوجدهما فريدين في بابهما، وأنه أعظم شعراء العصر الغرناطي.[4]

ومن العرب المحدثين الذين اختصوا شاعريته بالدراسة التفصيلية باحثان أعدّا في دراستهما رسالتيهما، أولهما: محمد الشريف قاهر، حيث قام بتحقيق ديوانه ودراسة أدبه دراسة تفصيلية، وثانيهما: وهاب سعيد الأمين جاءت دراسته موسومة بشعر لسان الدين بن الخطيب وخصائصه الفنية.[5]

ولنا أن نتوقف وقفة عجلى عند أمثلة من أشعاره التي أشرنا إلى موضوعاتها قبل قليل، وأكثر أشعاره تقترن بممدوحه الأثير الذي أحرز عنده مكانة، أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل فقد أشار محقق الديوان إلى تسعة وأربعين قصيدة تشتمل على حوالي ألفي بيت اقترنت به وجاءت تلك القصائد في مناسبات مختلفة كالتهنئة بعيدي الفطر والأضحى، أو الاحتفال بالمولد النبوي الشريف، وقدوم النيروز وازدياد مولود، وتعزية بمفقود، والإشادة بعمل عظيم أو التهنئة بالبيعة، ونستطيع أن نعد قصائده سجلاً حافلاً للوقائع العسكرية التي انتصر فيها ممدوحه على ملوك أسبانيا، فمن ذلك قوله يصف حصار جبل الفتح، وهلاك الأذفونيش عام ٧٥٠هـ:[6]

ألا حدثاها فهي أم العجائب ... وما حاضر في وصفها مثل غائب
هو الخبر الصدق الذي وضحت به ... سبيل الهدى بعد التباس المذاهب
سيوفك في أغمادها مطمئنة ... ولكن سيف الله دامي المضارب
لقد طوق الأذفنش سعدك خزية ... تجدّ على مر العصور الذواهب

---

١ المعجب، ٦٨٩/٧.
٢ نثير فرائد الجمان، ٢٤٣.
٣ لسان الدين، ٢١٤.
٤ مقدمة الديوان، ١٢٩.
٥ جامعة القاهرة، ١٩٨٠.
٦ الديوان، ق، ١٨.

إذا قيـــل أرض الله إرث عبـــاده بموجب تقوى أنت أقرب عاصب
ألست من القوم الذين إذا انتموا نمتهمُ إلى الأنصار غر المناسب

أما ممدوحه الثاني الذي قال فيه أشعاره فهو محمد الغني بالله الذي خلف أباه يوسف بسلطان غرناطة، وفيه نظم قصيدته الدالية التي تقع في أربعين بيتاً يهنئه ببيعته عام ٧٥٥هـ:[١]

إمام هدى من آل سعد نجاره ونصر الهدى ميراثه لبني سعد
غمام ندى جاء البلاد فأصبحت تجرر ذيل الخصب والعيشة الرغد
من النفر الوضاح والسادة الألى يغيثون في الجلى ويوفون بالعهد

ثم يمدح إسماعيل بن يوسف الثائر على أخيه محمد بقصيدة واحدة، وكان أول ممدوحيه من ملوك بني نصر سادسهم أبو عبد الله محمد بن إسماعيل (٧١٥. ٧٢٠هـ).

أما الغزل عنده فهو يرد استهلالاً لقصائد المديح والتهاني على عادة الشعراء ويأتي ضرب آخر من قصائده في هذا الباب غزلاً خالصاً بقصائد مفردة فيه وفي الديوان عشر قصائد في هذا الاتجاه ومنها قوله:[٢]

يا حبيباً من لعيني أن تراه قد رمى حبك قلبي وبراه
لم يدعْ هجرك لي من رمق آه مما فعل البين وآه
يا لقلبي كلّما هبّت صَبا شفّه الوجد لأيام صباه
يا نسيمَ الريح بلّغ خبري إنْ أتيت الرَّبع أو جئت حماه
ولقد كنت صبوراً إنما صدعَ البينُ فؤادي وكواه
جلّ ما ألقاه من فَرط الجوى حَسبيَ الله، فلا ربَّ سواه

وتغلب مسحة دينية على أشعاره فنتعرف على رجل ورع يميل إلى التصوف، ويضرع إلى الله كما يتشوق إلى لقائه، ولديه قصائد كثيرة في هذا الاتجاه، ومن ذلك قوله:[٣]

جلا الحقّ قلبي حتى أنارا فآنستُ من جانبِ الطور نارا
وحققتُ آنيتي وهي كنز فأخرجته إذ هدمت الجدارا
وأبصرتُ رسمي رسماً محيلاً وأبصرتُ وصفي وصفا معارا
فمهما نطقت، نطقت ادكارا ومهما صمتُّ صمتّ اعتبارا

كذلك نجد الشاعر ينظم في ضرب من الشعر الديني أطلق عليه الدارسون اسم (المولديات) وهو معدود في باب المديح النبوي الذي انتعش. كما تقدمت الإشارة إليه في عهدي الموحدين وبني الأحمر وقد جرى فيه على مذهب شعراء المديح النبوي الذين يستهلون قصائدهم بالغزل ثم يخلصونها في مدح الرسول وينتقلون بعدها إلى مديح من

---

١ الديوان، ق، ١٧٣.
٢ الديوان، ق، ٣٤٧.
٣ الديوان، ق، ٢٥٧.

رفعت إليه القصيدة، ومن ذلك قوله من قصيدة في حوالي أربعين بيتاً في الجناب الكريم وهي من أوليات نظمه في ذلك الغرض، لكن الملاحظ أنه لم يستهلها بالغزل بل بوصف تباريح الشوق إلى الحضرة النبوية حيث يقول فيها:[1]

هل كنت تعلم في هبوب الريح ... نفساً يؤجّج لاعج التبريح
وخضيبة المنقار تحسب أنّها ... نهلتْ بمورد دمعي المسفوح
فاحت بما تخفي وناحت في الدجى ... فرأيت في الآفاق دعوة نوح

وينتقل إلى وصف زيارته عليه الصلاة والسلام:

لما حططت لخير من وطئ الثرى ... بعنان كل مولد وصريح
يا صفوة الله المكين مكانه ... يا خير مؤتمن وخير نصيح
أقرضت فيك الله صدق محبتي ... أيكون تجري فيك غير ربيح؟
مدحتك آيات الكتاب فما عسى ... يثني على عليالك نظم مديحي
صلى عليك الله ما هبت صبا ... فهفت بغصنٍ للرياض مروح
واستأثر الرّحمن جلّ جلاله ... عن خلقه بخفي سرّ الروح

وأما ما تبقى من موضوعاته الشعرية، فيدور في موضوع الرثاء والأخويات، وأما شعر الهجاء فقد كان مقلاً فيه، ومن فنونه البديعية التي أولع بها، ما قاله في مقطوعات في غرض التورية:[2]

قال لي والدموع تنهل سحبا ... في عراض من الخدود محول
بك ما بي فقلت مولاي عافا ... ك المعافى من عبرتي ونحول
أنا جفني القريح يروي عن الأعـ ... ـمش والجفن منك عن مكحول

وله في باب التضمين أبيات كثيرة من ذلك قوله مضمناً من آية:[3]

قال جوادي عندما ... همزت همزاً أعجزه
إلى متى تهمزني ... ﴿ويل لكل همزه﴾

ومن ذلك قوله مضمناً معنى الحديث الشريف:[4]

أصبح الخدّ منك جنة عدن ... مجتلى أعين وشم أنوف
ظللتنا من الجفون سيوف ... جنة الخلد تحت ظل السيوف

والسمة الملاحظة في بناء قصائد ابن الخطيب، أنه حقق فيها ضرباً من التنويع، فجاءت بين مقطعات ومطولات، وفي باب المقطعات أورد أمثلة كثيرة، في كتاب الإحاطة،

---

١ ديوانه، ق، ١٤٢. الإحاطة، ٤٦٢/٤.
٢ الإحاطة، ٤٩٨/٤.
٣ الإحاطة، ٥٠٩/٤.
٤ الإحاطة، ٥٠٩/٤.

وهو يقصد هذا البناء قصداً حتى أنه استهلها بقوله: "المقطعات المشتملة على الأغراض العديدة".[1] والعبارة تنطوي كذلك على رغبته في تنويع موضوعاته.

نثره:

لقد مضت بنا الصفحات حديثاً عن شاعرية ابن الخطيب، وقد انطوت شهادات أبناء عصره وعصرنا على إشادة بأدبه شعراً ونثراً، ولكنا اخترنا الوقوف وقفة أناة وتؤدة عند نثره لنفصل القول فيه بعد أن ضرب بسهم وافر، ولم يدع زاوية إلا خاض فيها أو اتجاهاً إلا واختار القول فيه.

وعلى نحو ما أثنى مؤرخو الأدب على شعر ابن الخطيب، أثنوا على نثره، فقد أعجب المقري فقال: "أما نثره فهو البحر الزخار، بل الدر الذي به الافتخار".[2]

وقد أشرنا خلال حديثنا عن آثاره إلى ضروبها، وبعضها مما يتصل بموضوعنا، إذ نجد النثر التأليفي عنده من أبرز أنماط النثر، وذلك يتجلى في مقدمات كتبه، وفي سياقها كذلك، فقد نوّه في مقدمة ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب بتحميداته التي صدر بها عدداً من كتبه ومؤلفاته فساق أمثلة من ثلاثة عشر مصنفاً من مصنفاته، قال عنها: "بعض من كل ويسير من جل"[3] وهي بستان الدول، وتلخيص الذهب، وجيش التوشيح، واللمحة البدرية، ورقم الحلل والسحر والشعر، وتاريخ غرناطة، والتاج المحلى، وروضة التعريف، واستنزال اللطف، والوصول لحفظ الصحة، وكأنه بذلك يريد أن يرى أمثلة للكتّاب في الكتاب الذي جعله ريحانةً لهم ومنتجعاً، فمن ذلك ما ثبته في كتاب تلخيص الذهب، المرفوع إلى خزانة السلطان المقدس المجاهد، أبي الحجاج بن نصر رحمة الله عليه:[4]

"أما بعد حمد الله، الذي قصر وصف الكمال المحض على ذاته، وجعل الألسن تتفاوت في رتب البيان ودرجاته، والثناء عليه، بما به على نفسه أثنى من أسمائه الحسنى وصفاته، والاعتراف بالقصور عما لا تدركه قوى الأذهان من كنه سلطانه العظيم الشأن، فكثيراً ما كان عجب الإنسان من آفاته، والصلاة على سيدنا ومولانا محمد، الصادع بآياته، المعجز ببيناته، الذي اصطفاه لحمل أمانته العظمى، وحباه بالقدر الرفيع، والمحل الأسمى، والله يعلم حيث يجعل رسالاته، والرضى عن آله وأصحابه وأحزابه، نجوم الدين وهداته، وأنصار الحق وحُماته".

إن أكثر رسائل ابن الخطيب كانت سلطانية أو ديوانية، وليس ذلك غريباً على من

---

١ الإحاطة، ٤/٤٩٧ . ٥٢٥.
٢ النفح، ٦/١٦٤.
٣ ريحانة الكتاب، ٢١. وقد ساق المقدمات، ص ٢١ . ٥٣.
٤ نفسه، ٢٣.